تلمسان في الشعر العبد الوادي
مقاربة تحليلية

أ/ سوميشة بن مداح
جامعة تلمسان

ممّا لا يتنازع بيه اثنان أنّ للبيئة أثرا فيما ينتجه المبدعون عادة ، وممّا لا ريب فيه أيضا أنّ أي شاعر فذ الشعرية ينسجم تلقائيا مع الرياض المريعة، ويسحر بمختلف المناظر الطبيعية الفتانة، ثمّ سرعان ما يراها تنصب على جبنات قريضه، فقد قيض الله لتلمسان جمالا أخاذا كان مهبط وحي الشعراء ومصدر إلهامهم ، فعدّت بذلك عروس البلدان ، وكان تاريخها تاجا وعرفانا وها هو ذا الهادي السنوسي الزاهري يدعونا إلى التمتع بجمال تلمسان قائلا:

هذي لعمرك يا خلي تلمسان فيهنأ القلب و لتبرحه أشجان

تلك الّتي أشبع الراوي روايته منها و تاريخها تاج و عرفان

تلك الّتي لم يزل تاريخها مثلا شيدت به لصروح العز أركان[1]

يستحسن بنا قبل أن نلج إلى الموضوع أن نشير إلى لمحة تاريخية عن تلمسان وعن حضارتها قديما ، لما لذلك من دلالة على تحضرها ولا طالما بحثنا عن اسم المدينة في العصور القديمة فلم تفدنا به كتب التاريخ ، إذ لم يصلنا إلاّ اسمها الروماني " بوماريا " ، وهذا لا يعني أنّ المدينة تأسيس روماني ،فلا شكّ أنّها أقدم من وجود الرومان في تلك الناحية من البلاد لكون موقعها الجغرافي الجميل والفريد من شأنه أن يجعل منها أرض استقرار آهلة. فلا يمكن إذن أن تبقى بدون اسم ، وممّا لا ريب فيه أنّ اسم " بوماريا " ما هو ترجمة للاسم البربري القديم ، وحينما استتب الأمر للبربر أطلقوا عليها بلغتهم اسم " أقادير " ما يعادل العبارتين العربيتين " جدار قديم ومدينة محصنة " أمّا المعنى الأوّل يدل على أنّ أقادير مدينة عريقة في القدم أزلية ، وتفهم من المعنى الثاني أنّ أقادير كانت مدينة ولكنّها تغاير المدن المبثوثة حينئذ في ذلك الإقليم حيث كانت محصنة بقلعتها المحاطة بالأسوار والأبراج المنيعة.

ثمّ سميت المدينة " تلمسان " وهذا الاسم في لغة زناتة قوم الإقليم مركب من (تلم) ومعناه تجمّع ومن (سان) ومعناه اثنان ، أي أنّ الصحراء والتلّ وهكذا جاء شرح كلمة "تلمسان" في النقح عن عبد الله الآبلي شيخ المقري ، وكان حافظا بلسان البربر كما يذر المقري أيضا أنّه يقال (تلسمان) وهو مركب من (تلم) ومعناه لها و(شان) أي لها شأن[2]، ويذهب ابن الرقيق إلى أنّ (سان) من تلمسان يفهم منه البّر والبحر.

وانطلاقا من هذه المفاهيم يتبيّن لنا أنّ لفظة " تلمسان " لا تطلق على المدينة الّتي كانت تعرف عند أهلها " أقادير " وإنّما على هذا النوع من المدن الواقعة في حضن أرض تنعم بالمياه والأشجار وتحيط بها الجبال والتلال.

وعلى هذا الأساس فإنّ كلمة " تلمسان " بربرية الأصل فتلمسان غوطة عند الرومان والبربر معا. تضمها الجبال شرقا وغربا وجنوبا ويرسل عليها البحر شمالا نسيمه العليل.

إنّ تلمسان لمدينة عريقة في القدم ، ولكنّها لم تصبح ذات شأن في عالم التاريخ والحضارة حتّى افتتحها العرب ، وتربّع فيها الإسلام ، وإنّ موقعها الإستراتيجي الهام قد جعلها همزة وصل بن الناحية الشرقية والناحية الغربية من أرض إفريقية الشمالية من جهة وبين الحوض المتوسط وبلاد السود من جهة أخرى.

فد رزق الله تلمسان في الفترة العبد الوادية (633 هـ – 962 هـ) ملوكا عنوا بالعلم وأهله ، فنهضت الثقافة على يدهم نهضة كبيرة حيث تنافس الحفصيون والزيانيون والمرينيون في تقريب العلماء والأدباء من مجالسهم فتعدّدت المناظرات العلمية وازدهرت الفنون الأدبية فتلمسان أصبحت على عهد بني زيان حضارة من أعظم حواضر العلم والسياسة بالعلم الإسلامي. حيث كانت الجزائر قبل هذه الفترة تابعة للشرق الإسلامي في حضارتها وثقافتها وفنونها، ولكن حين استولى الإسبان على "غرناطة" سنة 1492م، ما كان على المسلمين إلاّ إن يهجروا الأندلس ، ونزحوا إلى الجزائر وتربعوا في حواضرها ومن أهمّها تلمسان الّتي كانت شديدة الصلة بالأندلس ، فحملوا معهم علومهم وآدابهم وفنونهم، فقد نظموا حلقات تعليم بالمدارس والمساجد وخاصة بالمسجد الجامع الذي أصبح معهد للتدريس لا يقلّ أهمية عن جامع الزيتونة أو القرويين " ولأوّل مرّة وقعت حركة التعريب في الربوع الجزائرية " وهذه الحركة الّتي قام بها أولئك النازحون تلاحق حركة التعريب في عصر المأمون ببغداد وزيادة الله بالقيروان وعبد الرحمان الناصر والحكم بقرطبة[3].

ولقد عرف الأدب الجزائري في هذه الفترة ازدهارا كبيرا ، فتقدم تقدما محسوسا من حيث الكمّ والنوع نتيجة تعبيد الملوك لهذه الأرضية ، حيث سعوا في تنشيط الحركة العلمية والأدبية ولا غرو في ذلك فجلّ الملوك الذي حكموا تلمسان في هذه الفترة كانوا من العلماء والأدباء والشعراء، فقربوا إليهم أهل العلم وأغدقوا عليهم صلاتهم فأصبح البلاط الزياني مشعا بالأدباء ، فكان الكتاب ، الخبراء ، والشعراء السياسيون للدولة يمدحون ملوكها وينطقون بمجدها ، وإنّ بهاء طبيعة تلمسان سحر بصر الشعراء ، وولد فيهم حب الجمال ، وسعة الخيال. أضف إلى ذلك تلك الأحداث الّتي ألمت بهذه الفترة شحذت قرائح أهل القريض ،

فجاءوا بشعر كثير جيد تلمس فيه حب الوطن وافتتانا بطبيعته الساحرة. وأمّا الكتاب فقد نهضوا بالنثر نهضة فنية فألبسوه وشاح يوائم ذلك الجمال الإقليمي ورصعوه بالتشبيهات الرقيقة والاستعارات الأنيقة متسمين بسمات المشارقة والأندلسيين، وبجانب النثر الفني كان هناك نثر مرسل في الكتابة التاريخية والأسلوب العلمي ولم تنضج الموشحات الأندلسية إلاّ في هذا العصر الذي تسرب فيه التصوف إلى الأدب الجزائري ونشأت المدائح ثمّ الميلاديات.

والجدير بالذكر أنّ حقل الأدب بمملكة تلمسان كان خصبا وراجت سوقه عندما حلّ بها المهاجرون الأندلسيون الذي أضفوا على هذا الحقل انتعاشا ورواجا ، فكان منهم الشعراء والكتاب. ومهما يكن فإنّ صوت أعلام تلمسان اخترق الحدود ليصل إل أصقاع العا لم البعيدة في المشرق العربي والأندلسي " وقد يكون من الضجر أن نتحدث عن معظم الأعلام الذين أنجبتهم تلمسان " في هذه الفترة لأنّهم مجتمعين يكوّنون خلية واحدة تصب في نهر واحد يفضي إلى يمّ العلم والمعرفة.

والمستقطب للانتباه أنّ رجال الفكر والثقافة تكاثروا في القرن الثامن الهجري، ولكنّ الأمر كان أقل في القرنين السادس والسابع[4] ، ومن هؤلاء الأعلام الذين تباهت بهم تلمسان "الشريف التلمساني " المتوفى عام 792ه الذي يعدّ آية زمانه وموسوعة عصره ومفخرة الجزائر ، ومن أبرز طلبته الذين تبحروا في علوم اللغة والأدب والدين " ابن مرزوق الحفيد" المتوفى عام 842ه وشخصية أخرى ذاع صيتها في التصوف الديني ونقصد بها شخصية الحسن بن مخلوف الملقب بأبركان (708ه) كما كان لأبي حجلة التلمساني (776ه) شأن في الأدب ولنا في ابن مريم التلمساني صاحب كتاب البستان مفخرة أضاءت تاريخ الأدب الجزائري القديم.

وما لا نغفله في أواخر القرن السابع الهجري شخصية فذة تتمثل في شخصية أبي عبد الله بن خميس المتوفى عام 708ه والذي عد من فحول الشعراء وأعلام البلغاء يرتكب مستصعبات القوافي ويطير في القوافي مطار ذي القوادم الباسقة والخوافي حافظا لأشعار العرب. ومكانة ابن خميس يثبتها ابن خلدون في قوله : « كان لا يجارى في البلاغة والشعر». فابن خميس لا يتناسى تلمسان فهو يعطيها حقها في كثير من القصائد ولا غرو في ذلك. فتلمسان مسقط رأسه ومرتع صباه وهي موطن السحر والجمال بما تحويه من مناظر فتانة ورياض مريعة ، كما يقال : « تلمسان بهوائها وجمالها وملاحف نسائها توازي الدنيا وما فيها »[5].

فقد أسال ابن خميس عواطفه وأذاب خباياه فتفتقت قريحته تشدو بمسقط رأسه :

تلمسان لو أنّ الزمان بها يسخو منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

وداري بها الأولى الّتي حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحنق اللخ

و عهدي بها و العمر في عنفوانه وماء شبابي لا أجين ولا مطخ

قرارة تهيام و مغنى صبابة ومعهد أنس لا يلذ لطخ

فمن يك سكرانا من الوجد مرة فإني منه طول دهري لملتخ

فالشاعر قد هام بتلمسان وذاب في محاسنها ، فهو يجد في الحديث عنها سلوى للنفس وتنفيسا عن الكرب فهو حينما يتذكرها تجيش عيناه وتهيج أشجانه فينفجر خاطره كالبركان حنينا وأشواقا في مثل قوله :

تلمسان جادتك السحاب الروائح وأرست بواديك الرياح اللواقح

وسحّ على ساحات باب جيادها ملث يصافي تربها ويصافح

يطير فؤادي كلّما لا لمع وينهل دمعي كلما ناح صادح

فما الماء إلاّ ما تسح مدامعي **الجـــوانح تـحنّ ما إلاّ النـــار وما**

ومن المظاهر الّتي لمسناها في إبداعه ما قاله واصفا الوريط :

نسيت وما أنسى الوريط وقفة أنافخ فيها روضة وأفاوح

مطلا على ذاك الغدير وقد بدت لإنسان عيني من صفاه صفائح

فما الماء ملآنا بد معي طافحا فإني سكرا بحبك طافح[6]

هي قصيدة طويلة تنمّ عن شاعرية فذّة ، ونشعر عند قراءتها بموسيقى حلوة تتناغم ورقة المعنى ، وجمال اللفظ اصطبغ بصوت المتنبي وألوان البحتري وجناس أبي تماما وطبلقه. واقتداء ببني العرفي فقيلت في هذه وتلك قصائد طوال ومنها هذه النموذج لأبي بكر العطار الذي برع في ميدان المدائح ، جمعها في كتاب " الدرر " :

ومن مشاهير الصوفية الذين عرفتهم تلمسان : أبو مدين بن شعيب بن الحسن الأثيلي المتوفى عام 954هـ بتلمسان والمدفون برابضة العباد ، وعفيف الدين التلمساني ، والحاج ابن أحمد المناوفي أصلا الورنيدي مولدا ودارا.

والتصوف ظهر أثره قويا في الأدب الجزائري ، ومما ينسب إلى شعيب أبي مدين ، قوله :

بكت السحاب فأصبحت لبكائها زهر الرياض وفاضت الأنهار

وقد أقبلت شمس النهار بحلة خضرا وفي أسرارها أسرار

وأتى الربيع بخيله وجنوده فتمتعت في حسنه الأبصار

أنوار أحمد حسنها يتلألأ المصطفى بحلي الكمال بملأ

الشمس تخجل وهو منها أضوأ النور منه مقسم ومجزأقد زان صلوا عليه وسلموا تسليما[7]

ذاك النور ابراهيما

لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا مزمارنا التسبيح و الأذكار

وشرابنا من لطفه و غناؤنا نعم الحبيب الواحد القهار

فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل الممات فدهركم غدار

والله أرحم بالفقير إذا أتى من والديه فإنّه غفار

ثم الصلاة على الشفيع المصطفى ما رنّمت بلغاتها الأطيار[8]

أمّا محمد بن يوسف الشفري التلمساني ، أتقن الأدب ورزق حظا وافرا من الشعر فبرز فيه ، فقد أحبّ البلد الذي عاش فيه واعتبره من أجمل البلدان ، فبهاء طبيعة تلمسان سحر بصره ، وولد فيه حبّ الجمال وسعة الخيال ، ويدلنا على هذا قوله في القصيدة الّتي رفعها إلى صاحب العرش " أبي حمو موسى " :

أيها الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا بباب الجياد

وصلوها أصائل بليال كلآل نظمن في الأجياد

في رياض منضدات المجاني بين تلك الربى وتلك الوهاد

وبروج مشيدات المباني باديات السنى كشهب بوادي[9]

قصيدة تنم رقة ونعومة وتشابيه حلوة وصور بديعة.

ومن الميلاديات تلك القصيدة الطويلة الّتي قالها الفقيه الكاتب " أبو زكرياء يحي بن خلدون" (780م) في مولد عام ثمانية وسبعين وسبعامئة ، واستطرد فياه مدح السلطان " أبو حمو" صاحب تلمسان :

ما على الصب في الهوى من جناح أن يرى حلف عبرة وافتضاح

وإذا ما المحب عيل اصطبارا كيف يصغى إلى نصيحة لاح

يا رعي الله بالمخصب ربعا أذنت عهده النوى بانتزاح[10]

وكان أبو حمو موسى الثاني (774ه) أديبا يقرض الشعر ويحب أهله ، وله ميدلاديات الأولى منها قالها سنة 760 ه الّتي يندم في مطلعها ويبكي على ما اقترفه من ذنوب في شبابه :

نام الأحباب ولم تنم عيني لمصارعة الندم

والدمع تحدر كالديم جرح الخدين فوا أ لم[11]

وحينما انتصر الملك الشاعر دخل تلمسان وبويع من طرف أهلها وتربع على عرشه مفتخرا :

دخلت تلمسان الّتي كنت أرتجي كما ذكروا في الجفر أهل الملاحم

فخلصت من غصابها دار ملكنا وطهرتها من كل باغ وجارم[12]

وقد بدا لنا من الوقفات المتناصية عند هؤلاء الشعراء أنّهم استطاعوا أن يرسموا لنا الألواح المثيرة من طبيعة تلمسان الجميلة ، باعتبارها حاضرة من حواضر العالم الإسلامي لها إسهامها في العلم والحضارة ، هذا فضلا على ما تتباهى به من تاريخ عريق.

والهدف من هذه المداخلة هو السعي للكشف عن نتاج الأدب لتلمسان قديما ، وإعادة الاعتبار لأصحابه الذين بذلوا ما في مقدورهم بغية تأسيس حركة أدبية تضاهي مثيلاتها في المشرق العربي أو تكاد.

هوامش وإحالات

[1] – ينظر : تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، ص .236

[2]– ينظر : تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، ص 236.

[3]– ينظر : تاريخ الأدب الجزائري : محمد الطمار ، ص 164.

[4]– انظر : من أعلام تلمسان : محمد مرتاض ، ص 14.

[5]– انظر : تاريخ الأدب الجزائري ، محمد طمار ، ص 178.

[6] – نفح الطيب : أحمد المقري ، تحقيق إحسان عباس ، ص 370 – 371.

[7]– تاريخ الأدب الجزائري ، محمد طمار ، ص 206.

[8]– ينظر تاريخ الأدب الجزائري : محمد الطمار ، ص 156.

[9]– ينظر : تاريخ الأدب الجزائري : محمد الطمار ، ص 161.

[10]– م.س ، تاريخ الأدب الجزائري : محمد الطمار ، ص 208.

[11]– م.ن ، تاريخ الأدب الجزائري : محمد الطمار ، ص 214.

[12]– م.س ، تاريخ الأدب الجزائري : محمد الطمار ، ص 216.